شاهدٌ على قصف الأسطول الفرنسي

لطرابلس سنة 1685

عبر تاريخها تعرضت طرابلس لكثير من الهجمات البحرية، أساطيل أكبر الدول في العالم كان لها معارك على شواطئها، معظم تلك الهجمات كانت بسبب حروب السيطرة على المتوسط وعملية القرصنة وفرض الضرائب على المرور التي كانت تحدث على طول شواطئ شمال افريقيا، واحدة من أعنف تلك الحملات كانت للأسطول الفرنسي بقيادة "دي استري" سنة 1685م وهي حملة أدت حسب بعض المصادر إلى تدمير نحو نصف المدينة، واستعملت فيها قذائف حديثة حينها.

معظم أخبار هذه الحملات جاءتنا من مصادر أجنبية غالباً ما كتبها المهاجمون أنفسهم، أو نقلت إلينا متأخرة من كتابات مؤرخين متخصصين، وقليلة هي المصادر التي كتبت ما حدث من داخل طرابلس، هذا شاهد يتحدث وهو حاضر تلك الأيام والليالي العصيبة، يتعلق الأمر بالرحالة المغربي أحمد ابن محمد الدرعي الذي يقول: -

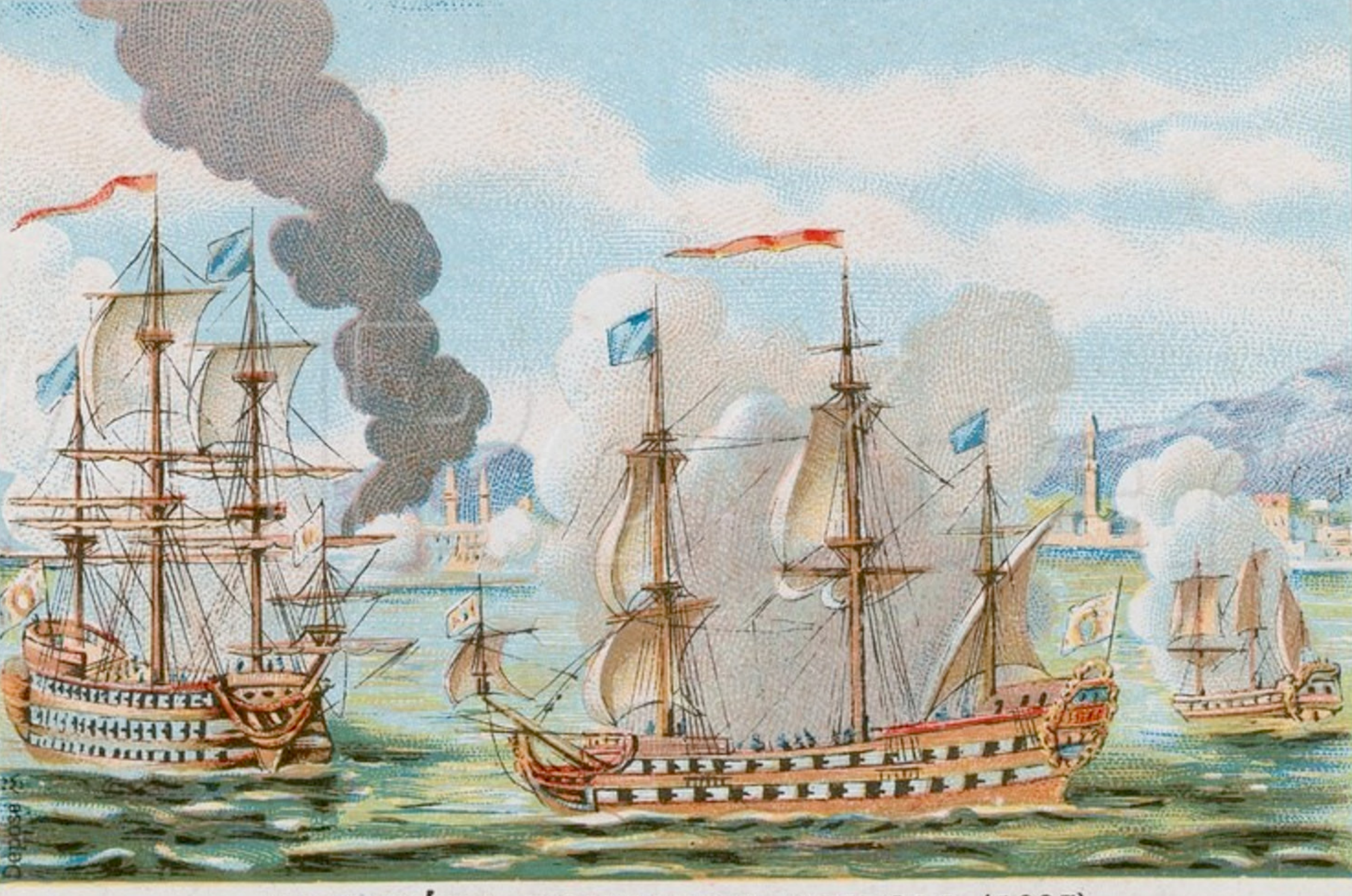
(وذلك أنا يوم نزولنا بها بمنزل الركب بسبب البحر، إذ بسفن ثلاث ظهرت على متن البحر ثم تتابعت الفلك في اليوم نفسه إلى أن اكملت اثنتين وعشرين سفينة فأقاموا عليها -دمرمهم الله-بقية الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وأهل المدينة في تلك المدة في هول عظيم، ونكد جسيم، وعناء شديد، وأخذوا في نقل أمتعتهم من المدينة لخارجها وحريمهم إلى سوانيهم بالمنشية.

ولما رأينا ذلك تكلمنا معهم فقالو، هذا والله منا ليس بجبن، وإنما حملنا على ما رأيتم ما أتوا به مما لا طاقة لنا به من البنية، يضربون بها ولا تقع على شيء كائناً ما كان إلا وهدته ودكته، والمسلمون في هذه الليالي كلها لا ينامون، بل يحرسون على البحر ويطوفون حوله ونحن ركبنا معهم في ذلك مستهلين بالشهادة، معلنين بالصلاة على البشير النذير، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيات من الملك القدير. فلما كان بعد صلاة العشاء ليلة السبت، ضرب الكفرة -دمرهم الله- بمدافعهم فرأينا من ذلك مالم نره قط ولا سمعنا به، ترى البارود يخرج من بخش المدفع فإذا بكورة محماة تحكي الشهب خرجت منه فصعدت ثم يرمون بأخرى فترتفع أكثر من الأولى ثم تتدلى هابطة، فإذا وقعت بالأرض سمع لها صوت هائل تصم منه الآذان، فتتصدع في الموضع الذي وقعت فيه وتتفرق، ولا تقع على بناء إلا وهدته، ولا على بسيط مستو إلا وجرفته وحفرته، ولا على علية أو اسطوانة إلا وهدتها، ولا على شجرة وأحرقتها أو اقتلعتها، فتمكث في أعماق الأرض سويعة فتتكسر فيسمع لها صوت هائل أعظم من الأول.



ونحن في ذلك رافعي الأكف بالذلة والافتقار، والخضوع والتضرع إلى الله الليل كله ولا نكتحل بنوم قط، وما خرج مدفع من مدافعهم إلا وظننا أنه يقع علينا فتارة تقع حذاءنا وتارة تمر علينا وأكثر ما تقع بالمدينة أو البحر قرب المدينة خارجا، وفي بعض الليالي وهي من الليالي الهائلة أخذوا في الضرب الليل كله إلى الصباح، بل إلى الضحى، لا يفترون عنه ساعة وضربوا فيما أخبرني بعض فقهاء البلد بأزيد من تسعمائة كورة.

فلما رأينا هولهم العظيم، ومعنا النساء والصبيان وفيهن الحوامل خشينا عليهن مما يعاينن، فتحولنا لبعض البساتين المسورة فنزل الركب بها، وأدخلنا حريمنا لبعض الديار، ثم أمسكوا عن الضرب إلى أن صلي العشاء فضربوا أيضاً دفعة واحدة فهاجت عليهم أرياح عاصفة وأفسدت



كورهـم بإخـماد مـا تعلـق بهـا مـن نـار، وعنـد الفـيء عـادوا للرمـي إلى الضحـى.

ولمـا قـرب الـزوال زحفـوا للمـرسى فعاقهـم مـن بالبرجـين اللذيـن عـلى البحـر مـن المراطـين بيهـا البائعـين أنفسـهم مـن اللـه، وقـط لا يخلـوان مـن حـرس في السـلم والحـرب، فردوهـم عـلى أعقابهـم حتـى كـسروا لهـم صنـدلاً فنكصـوا عـلى أعقابهـم، وولـوا أدبارهـم، والحمـد للـه رب العالمـين. فكـثر اللغـط والعويـل بالـبر فجـاء النـاس مشـاة وركبانـاً بعـدد وعـدد، كل بحسـب وسـعه، فاكفهـرت وجـوه الأبطـال وكلحـت شـفاه الرجـال وشـمروا للنـزال، وتهيـؤوا للدفـاع والقتـال، واحمـرت الحـدق، فكسـا اللـه الأعـداء الفـرق، فارتحلـوا إلى أبعـد مـكان، فأبعدهـم اللـه وأسـحقهم وأذلهـم وأقلقهـم.

وأعـد النـاس النصـال والـبراز، وكتـب كل وصيتـه كلهـم يرجـو أن يخرجـوا لهـم للـبر واجتمعـت آلاف مؤلفـة مـن أجـل الدفـاع والقتـال.

ثـم جـرى بينهـم صلـح عـلى أن يعيـد لهـم المسـلمون جميـع مـن عندهـم مـن أسراهـم، ويـردوا لهـم مـا أخـذوا منهـم قبـل ذلـك الزمـان في البحـر، في هدنـة بينهـم وقبلـوا بهـا.

فحينئـذ نزلـوا مـن البحـر ودخلـوا المدينـة للتسـوق، ثـم أجلاهـم اللـه يـوم الخميـس بعـد تمـام المهادنـة وإمضـاء شروطهـا وفـرح النـاس بانتقالهـم عنهـم واقلاعهـم عـن البحـر غايـة الفـرح) أهــ

وعلى الرغم من إمكانية تخيل الماضي، فإن الحقيقة يكشفها المستكشفون.